مؤولات النص في تجربة الناقد الجزائري عبد القادر فيدوح
د. جميلة بكوش. المدرسة العليا للأساتذة – مستغانم.

- مقدمة:

يقف هذا البحث حول دراسات الناقد عبد القادر فيدوح على بعض التساؤلات عن منطلق التفكير النقدي، الذي يحدد وجهته في تجربته النقدية على النصوص الإبداعية الشعرية والسردية، متقصيا الجهد التأويلي الذي من شأنه أن يغذي رؤيا النص، المبني على عنصر التمكن من خرق المسكوت عنه، بالنظر إلى إمكانية تبصُّر النص الإبداعي، الذي يسعى إلى مطلب البحث عما يحرك صاحبه من تساؤل، بما في ذلك الرؤية الراسية في الموروث الكلي للأنا الجمعي، سعيا منه إلى معانقة المتعالي في تراثنا، ونشدان الكمال فيه.

لعل كل محاولة من عبد القادر فيدوح هي مسعىً للكشف عن رؤيا النص وسر تشكله، ضمن سر التساؤل عن جملة من الدلالات التي من شأنها أن تبين التوازي في تقابل ضدي بين واقع النص وإشعاعه المضيء في المنظور المتأمل للتقابلات والتناظرات المتوازية في النص الذي يستشرف معاينته في الواقع المأمول. وبالنظر إلى ذلك يتفقد عبد القادر فيدوح رؤيا النص التي تستقرئ الواقع الرؤيوي، الاستشرافي بعيدا عن أن تكون هذه الرؤية قطعية الدلالة، أو أن يشتمل معناها على معنى ثابت، وحتى في الحالة التي يفترض فيها المبدع تساؤلا محيرا عن مساعي فهم رؤاه، فإن ذلك يكون من غير جدوى، فيما يمكن أن يكون

أدعى لاستخلاص الرؤية الصائبة، وهو الأمر الذي يسعى هذا البحث إلى الوقوف عليه.

1- مكوّنات المشروع النقدي عند عبد القادر فيدوح:

آمن الناقد والمفكّر الأكاديمي الجزائري عبد القادر فيدوح أنّ الثقافة تعبير عن الحياة، وأنّ هذه الحياة في تغيّر مستمر بما تحتويه من مضامين معرفية، يواكبها الباحث، متسلّحا بمناهج فكرية، واتجاهات نقدية سايرت سياق النّص في انفتاحه على عوالم ثقافية وفكرية ومعرفية متسارعة، متواشجة بمضامين الواقع، رغبة في الكشف عن ما يكتنفه من غموض وتعقيد، لذلك لم يتوان عبد القادر فيدوح، ولم يتأخر في تفاعله مع المعطى الفكري الذي شهد سياقات جديدة في التعاطي مع المعرفة، التي «فرضتها مناهج جديدة، تدعو إلى تجاوز كل ما هو ثابت، والوثب على كلّ ما هو سائغ، رغبة في التجاوب مع مستجدات العصر، واستقراء الواقع، لاستشراف المستقبل في تغيّراته المنتظرة، وتحولاته المخطط لها، وكيفية مواجهته ثقافيا ومعرفيا»[1]. ومن منطلق أنّ الاتجاهات النقدية الحديثة لم تعد قابلة للسيرورة كما كانت، فإنّ تجربة الناقد عبد القادر فيدوح قامت على فاعلية الرؤيا الكشفية التي تنفتح على الأنساق المختلفة والنظريات الأدبية المتعددة، التي أقام عليها دعائم فكره النقدي، الذي استند إلى التأويل السيميائي الممتد إلى شمولية الدلالة، جامعا بين رؤاه الكشفيّة، وأصالته النقدية، المشفوعة بنظريات أدبية معاصرة، امتاح منها رؤيته الجمالية للنص؛ الأمر الذي وسع من مقدرته الكشفية المبنية على الذوق الفني، الذي استقى منه ممكناته النقدية بمسوغات تأويلية حافلة بالدلالات المختزنة، والمتباينة في النص، من خلال تجربة امتدت إلى أكثر من ربع قرن، ، ألمّت بآليات التحليل، التي جمع فيها بين المناهج السياقية والمناهج النسقية، بدءا بتعدد رؤاه التحليلية للنص، بخاصة منها السيميائية، وصولا إلى الدراسات

[1]- عبد القادر فيدوح، حوار مع الناقد عبد القادر فيدوح، مجلة أيقونات، منشورات رابطة (سيما للبحوث السيميائية) الجزائر، العدد الأول 2010، ص: 132- 133.

الثقافيــة فـي أنســاقها المضــمرة، التـي تعــدّ فـي رأيــه موضــع ســؤال فـي الطــابع الخصوصي لكل ثقافة من الثقافات.

وقـد تجلّـت جهـوده في التأويـل السـيميائي في بـواكير تجاربـه النقديـة مـع المـنهج التـأويلي في كتابـه (القـيم الفكريـة والجماليـة في شـعر طرفـة بـن العبـد).ثمّ تلتـه تجربتـه المتميـزة في كتابـه (الاتجـاه النفسـي في نقـد الشـعر العربـي) وهـو الكتـاب الـذي حظـي بمقروئيـة كثيفـة في الحركـة الثقافيـة في الـوطن العربـي، الأمـر الـذي دفـع دور النشــر إلـى طبعـه أكثـر مـن سـبع طبعـات في دور نشــر عربيـة مختلفـة، فضـلا عـن كتابـه الرائـد في مجـال الدراسـات السـيميائية - نـال بهـا صـاحبها درجـة الــدكتورة فـي المشــرق العربــي – علـى أنــه حظـي بالســبق التحليلـي فـي المــنهج السـيميائي(دلائلية الـنّص الأدبـي دراسـة سـيميائية للشـعر الجزائـري) الـذي صـنّفته إحـدى الدراسـات[1] بأنّـه مـن الكتـب الأولى في الدراسـات العربيـة التي تناولـت هـذا المــنهج بتطبيقــه علـى مجموعــة مــن النصــوص الشــعرية ، موظفــا رؤيــا تأويليــة كشــفية تجمــع بــين التحليــل العميــق لمعــاني الــنّص الخفيّــة ومــا تنــزاح إليــه مــن مقاصد عديدة، مُشكّلة نسيجا من الدلالات والمعاني المتباينة.

وقد كشــف لنا التحليل التأويلي الذي تســلّح به النّاقد عن كفاءة عاليّة، ومهارة علمية حاذقة، مُحاولا به كشـف اللامقول في النّص، ومضـمراته الخبيئة، بحسـب ما أسـماه في كتابه "معارج المعنى في الشعر العربي بـــ " **صـوغ التعاضـد**"، من أجل تكوين صورة أخرى متوازية مع الصورة الأولى، وقابلة للاستيعاب، على حدِّ رأي باشلار Gaston Bachelard في نظرته إلى الرؤية التخيلية، قوله: " قد يرى المرء دائما أن التخيل (أي التصـور) هو الطاقة المتمكنة من (صـياغة) الصـور، ولكن الأدق هو أنه الطاقة القادرة على منح الصـور التي يهيئها الإدراك الحسـي، وأنه فوق كل طاقة لها علاقة بتحير أنفسـنا من الصـورة الأولية،

[1] - ينظر: غريب إسكندر، الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002، ص: 12 وما بعدها

ومن الصورة المتغيرة. إذا لم يحدث أي تغير في الصور، أو اتحاد غير متوقع في الصور، فليس هنا أي تخيل، وليس هناك أية عملية تخيلية"[1]

ومن ثم فإن رؤية عبد القادر فيدوح الكشفية تحاول أن تنظر إلى النص بما يرفع من دلالات رؤيا النص في شموليته المدعاة لدلالة مشتركة؛ بما يواريه ويغطيه من معان متعالية، ويزرع فيه روح التجديد إلى اللامتناهي من الدلالات، دفعته إلى ذلك مسوّغات منها ما هو في تضاعيف النّص من فراغات بغرض استكناهها، والبحث عن أغوارها في الذات، والكون، وجوهر الحياة الإنسانية؛ وحيثما استعصى وعي المتلقي انضوى التأويل، استفرغ الناقد جهده في فهم النّصوص وإبداء الدلالة، واستثمار العلوم الإنسانية والنظريات المعرفية للظفر بهذا الفهم على نحو شمولي استقصائي، وهو الأمر الذي شقّ طريقه الناقد عبد القادر فيدوح في إنتاج فضاء آخر يوسّع مساحة فضاء النّص المؤول، ويخرجه من رحم مبدعه، ليقدّمه في رؤيا نقدية تعكس المفاهيم الضمنية المولدة من هذا النّص.

ولعلّ المتفحص لجديد الناقد عبد القادر فيدوح، والمطلع على تجربته يدرك أنّ كتبه النّقدية بما تحمله من رؤى كشفية جديدة مسايرة المناهج المستجدة لم تقف حائلا أمام القارئ ليعود إلى تجاربه النقدية الأولى، **لأنّ الناقد لم يكرّر نفسه في هذه التّجارب، فقد جدّد آليات التأويل وحرص أشدّ الحرص على مواكبة المناهج وآلياتها ومفاهيمها**، الأمر الذي ترك أثرًا بليغا، فرض وقعه على القارئ؛ لأنّ هذه الكتب هي عصارة فكر عميق ومحيط معرفي غائر، جسّدته آراؤه النقدية، التي يساير بها الحياة والمناهج والنظريات النقدية، ولعل المطلع على كتاب (إراءة التأويل) عند ناقدنا يجده يواكب إرادة المعرفة، وشغف الاطلاع لدى القارئ الأمر الذي يشبع نهمه في سياق التداول، وتفعيل المعنى، وتوالد التأويل من كتاب إلى آخر؛ بفعل **ما تحمله هذه الكتب من آراء نقدية**

[1] - ينظر: فرانكلين ر . روجرز: الشعر والرسم، ترجمة: مي مظفر، دار المأمون، ط أولى، بغداد 1990، ص 38. ينظر، عبد القادر فيدوح، معارج المعنى في الشعر العربي، ص: 22

سبقت وقتها حينا، وواكبت النظريات المعرفية حينا آخر، وحفرت في الموروث النقدي العربي أحيانا أخرى، متشبعا بالنظريات الغربية في كل حين، وهذا ديدن فكره في أغلب مؤلفاته النقدية، وهو في ذلك مؤمن بأنّ «ما ينتهجه الناقد يناظر فعل التأليف الذي يعتمد بالأساس على سياق حدس الباطن».[1]

وقد اقتحم الناقد في **مؤلفاته المناهج المعرفية المعاصرة، وساير تطوّرها، نظريا وتطبيقيا**، فهو لا يكتفي بعرض المنهج، والتعريف به، ورسم معالمه، وشرح أصوله، وقواعده النظرية، وامتداداتها العربية والغربية، والصلة بينهما فحسب، بل **يؤسس لهذا المنهج تطبيقيا**، بآلياته القرائية الكشفية على نصوص شعريّة قديمة وحديثة ومعاصرة، أو نصوص سردية كاملة باستيفاء شامل لأدوات المنهج، بغرض استكناه الذات المبدعة وكشف عوالمها، نحو ما نجد نظيره على سبيل المثال لا الحصر في كتابه: "الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي"، أوّل ما يلفت انتباه القارئ لهذا الكتاب - وكل من تصفح مؤلفاته - **هو المزاوجة بين المنهج والتطبيق**- فبعد أن يستعرض جذور المنهج الذي اختاره في هذا الكتاب، ويقتفي أثره تعريفا وتأسيسا وتنظيرا، يطبق في ما يلي من تضاعيف الكتاب على نصوص إبداعية قواعد هذا المنهج، مزاوجا في أثناء هذا التطبيق بين قواعد هذا المنهج، وأسسه ، مستنبطًا مهارته كناقد في التطبيق وفق ما تمليه عليه خبرته المعرفية المتحررة «من تلافيف الماضي ومألوفه، ومن أفق انتظار جاهز لا يستخلص من النّص رؤاه الاستشرافية التي من شأنها أن تفضي إلى توسّع الفهم»[2]. وهمّه في ذلك استنطاق لمسكوت النص المُرْجأ، وجعل الثابت متحركا، وكشف العتمة، وبعثه من جديد ، ونشر الرؤيا، وكسر الصمت، وانفتاح على البوح[3]، والوقوف على ما انفلت منه المبدع ووراه خوف الرقابة أو الكشف عمّا لا يُقال، فسعى إلى الحفر في النص بمنطقتيه: منطقة نص المتن،

---

[1]- عبد القادر فيدوح، معارج المعنى في الشعر العربي الحديث، دار صفحات، سوريا، 2012، ص: 11- 12.

[2]- عبد القادر فيدوح، إراءة التأويل ومدارج معنى الشعر. دار صفحات، سوريا، 2009، ص: 9.

[3]- ينظر، عبد القادر فيدوح، إراءة التأويل ومدارج معنى الشعر، ص: 10.

ومنطقة نص المحو، فالناقد يعتقد إنّ أي نص يتضمّن منطقتين في تضاعيفه، منطقة نص المتن، ومنطقة نص المحو، فالأولى مركزية/موضوعية، تراتبية، والثانية هاربة، منفلتة، وملتوية على نفسها، سواء بما تنعطف على المسكوت عنه في غالب الأحوال، أم فيما تعبر عنه اللغة الضمنية بالانثناء على نفسها ليرشده حدسه النقدي، وخبرته المعرفية إلى الاستبصار؛ فيما خفي في الدال والمراهنة على كيفية الاستدلال على تصدير الدال على المدلول، وبيان مضارعة الدال لوظيفة المدلول ومحاكاته[1]، والحفر في انثناءات النّص وتلافيفه.

وقد كان الناقد في كل مؤلفاته **وفيا لموروثنا الثقافي والمعرفي**؛ بالالتفات إلى النظريات المعرفية في هذا التراث، واقتفاء جذور المناهج الحديثة والمعاصرة التي عُرفت في الفكر العربي القديم بمضامينها البدئية؛ إذ لم يبخس جهود القدامى في ما تركوه لنا من تنظيرات عُدّت ركائز قوية وداعمة للنظريات المعرفية والتأويلية عربيا وغربيا ففي مقدمة كتابه "القيم الفكرية والجمالية في شعر طرفة بن العبد" مثلا، يكشف أصالة الفكر العربي النقدي في قوله: «لعلّ عصر "العرب قبل الإسلام" هو أكثر عصور الأدب التاريخية لحياة أمتنا العربية، ورؤيتها الفنية، وبوصفه الأصل الذي هيّأ لكلّ المتأخرين أن يستمدوا منه فيض معانيهم، وأكثر من ذلك فهو ماضينا الذي لا يمكن إنكاره، هذا الماضي الذي يجب أن نتعرّف على مزاياه ومآخذه، فيكون بذلك لزاما علينا أن نهتم به اهتماما متجددًا محاولين، بذلك ربطه بحاضرنا، مسترشدين به إلى المستقبل»[2]، وبطول نَفَسِهِ بحث في ما يقابل ذلك في الفكر الغربي، الذي لم ينبهر به إلى حدّ الذوبان إلاّ بالقدر الذي يساير التجديد، ويواكبه، وبالقدر الذي يعطي روحًا جديدة لهذه النصوص الإبداعية في قراءتها، فهو يرى في تحليل خطاب الشعر العربي المعاصر

[1]- ينظر: عبد القادر فيدوح، الخطاب الواصف ومؤوّلاته في الشعر العربي المعاصر، دار كنوز، الأردن، ط1، 2022، ص: 26.

[2]- عبد القادر فيدوح، القيم الفكرية والجمالية في شعر طرفة بن العبد، مؤسسة الأيام للصحافة والنشر والتوزيع، المنامة- البحرين، ط الأولى، 1998م، ص: 5.

أنّه «بحاجة ماسة إلى نبض دمه بمستجدات الطرائق، واستثمار رأس المال المعرفي، وتوقّد نبعه الفكري الذي من شأنه أن يغذّي أوردته جماليا»[1]، لذلك استدعى الإجراءات المعرفية للتأويل في تعامله مع هذه النصوص، بعيدًا عن مناحي العرض، والتفسير، والتعيّن، والتسوية، والحشو، و الوصفية، والتفصيلات المملة، فقد كان قريبًا جدًا من الدقة في اكتناه عالم النص بالمنهج الذي يختاره، وهو في ذلك لا يتخذ من المنهج سبيلا إلا بالقدر الذي يسهم في إعادة كتابة النص الإبداعي بطريقة تحليلية تأويلية كشفية، موازية للنّص الإبداعي، وهي تجربة فريدة لناقد متمرس، تكشف عن إلمامه الواسع بالثقافة العربية الأصيلة؛ بقيمها الدينية والاجتماعية والطبيعية والثقافية، ومتذوقا الصور الفنيّة المبثوثة في تضاعيف الشعر العربي القديم؛ إضافة إلى الحديث والمعاصر، والناظر إلى مؤلفات الناقد يدرك هذه الخبرة التأويلية على مدار أكثر من خمسين سنة من تجربته النقدية، وما يربو عن خمسين مؤلفا جمع فيها من كل علم بطرف، طرّزه بمنهج متفرّد في الطرح العميق، والتأويل المتبصر، وجمعٍ حكيمٍ بين الثقافات والنظريات العربية والغربية، ويكفي المتلقي أن يتصفح واحدًا من كتبه[*] التي يبدؤها بالمنهج، ويتبعها بالتطبيق حتى يجد أنه يشير إلى رسائل الجاحظ وبيانه، وإلى ابن قتيبة وأبي حيان التوحيدي والسيوطي وعبد القاهر الجرجاني وإلى "مجاز القرآن" لأبي عبيدة والسجلماسي وغيرهم كثير من علمائنا القدامى الذين يستعرض نظرياتهم وآراءهم استعراضا واسعا وعميقا، وحفرا في أصول علمهم، وصولا إلى المعاصرين، من عرب وغربيين من أمثال المفكر الجزائري محمد أركون وغيره كثير من الدارسين العرب ممن لا يمكن إحصاؤه في هذه الأسطر. إلى جاك دريدا من الغرب أو دي سوسير أو بول ريكو، ففي كتابه الخطاب الواصف - مثلا - وبعد أن يعرض آراء النقاد العرب يبدي وجهة نظره قائلا: «وفي هذا السياق نظر دارسونا ونقادنا القدامى إلى الآلية

[1]- عبد القادر فيدوح، معارج المعنى في الشعر العربي الحديث، ص: 11.

[*]- ينظر في ذلك على سبيل المثال لا الحصر، كتابه الخطاب الواصف، ص: 30 وما بعدها.

الإبداعية، بما هو حاصل في المرجعية الثقافية في الصورة المتجلية، وبما هو ناتج من اللاوعي في الصورة الخفية، والإنسان العربي القديم في هذه الحال موزع ذهنيا بين صورتي الخفاء والتجلّي»[1]، كما يشغله فهم المدلول الذي يتناوله بالشرح في تراثنا العربي «ولكن ماذا عن الفهم الضمني لمدلول "المضمر" في التراث العربي»[2]، كما لا يكتفي بالاستنتاج إنّما يسوّغه بالتعليل للرأي والتحليل المشفوع بالدليل، من ذلك قوله بعد مناقشة علمائنا القدامى في فكرة "المضمر" بوصفه حدثًا حاصلًا في لاوعي المبدع بقوله: «..كل ذلك هو ما يجعلنا نستنتج أنّ هناك نمطين من العملية الإبداعية لدى القدامى، إبداع مرسل للعيان، وإبداع قائم على الإضمار في أغلبه تتحكم فيه آلية اللاشعور الجمعي، وليس في ذلك ما يشير إلى وجود علة لتبرير هذا النّص المبطن داخل النّص الصريح»[3]، وربما استعان بآرائه النقدية المبثوثة في تضاعيف كتبه النقدية السابقة، «لقد جاء في كتابنا[4] [معارج المعنى] في مبحثه الأول عن شعرية التوازي والكشف البديل، ما يفيد أن النّص المضمر/ الصامت ليس تحليلا للإبداع، وإن كان ينطلق منه ليرتب النّص وينظمه من جديد».[5]

ولعل ما يلفت الانتباه في كتب الناقد عبد القادر اهتمامه بالمصطلح، في ضوء ما تشغله مؤولاته ومرجعيته طوال بحثه في تأليف أيٍّ من الكتب، ومحاورها، وليس ذلك فحسب بل بعد الشرح والتفسير يتتبع مسار المصطلح منذ نشأته، سعيا إلى أن يجد ما يقابل المصطلح في المرجعية الثقافية العربية، وعند المحدثين بعد ذلك، من الدارسين العرب والغربيين ولا يكتفي بذلك إلا إذا وصل إلى اقتراح اقتنع بدقته وشموليته باستفاضة دقيقة، من ذلك مصطلح

[1]- الخطاب الواصف، ص: 36.

[2]- الخطاب الواصف، ص: 35.

[3]- الخطاب الواصف، ص: 37.

[4]- عبد القادر فيدوح، معارج المعنى في الشعر العربي الحديث، 2012، ص: 20 وما بعدها.

[5]- عبد القادر فيدوح، الخطاب الواصف، ص: 57-58.

(اللغة الواصفة) وتعدّد تناسله عند الغرب [رأي أوستين مثلا] واجتهاد العرب في تناسل رؤاهم؛ لإيجاد مصطلح ترجمة [الميتا لغة] معللا سبب هذا الاختيار، برأيه العلمي الموضوعي في قوله «ولنا على هذا الافتراض مندوحة، باستبدال اللّغة الضمنية باللّغة الواصفة، لما في لفظ (الواصف) من لبس في توسيع المعنى الدلالي».[1]

إنّ مناقشة الناقد عبد القادر فيدوح لآراء النّقاد قديمهم وحديثهم، عربهم وغربييهم، مناقشة الواثق من نفسه، المطمئن لطرحه، المتسلّح بمعرفته، تؤكد أنّه من طينة الكبار، وتثبت أنّ النقد العربي معافَى، ومازال معطاء ثريا، ينتظر من يمهره السهاد، كما كشفت لنا جهوده النقدية، المتشبّعة بالفكر الفلسفي الرشدي [نسبة إلى ابن رشد]، في تركيب الجملة وطرح الفكرة، طرحا فلسفيا دقيقا، بعيدا عن الحشو، واضعا (المعرفة) موضع السؤال المستمر، متحصّنا بالنظرية وبما تحمله من أدوات معرفية للبحث عن قيمة النّص وحقيقته، لتحصل بها معرفة الشيء على أتمّه وكنهه.[2] ولا غرو في ذلك فقد تشبّع الناقد بهذا الفكر الذي جسّده في كل كتبه النقدية، وتجلّى بوضوح في طرائق تحليله وهو يناقش "نظرية التأويل في الفلسفة العربية الإسلامية" فهو يستنطق الرموز، ويفتض الإشارات والتلميحات في تعامله مع النّص، بوصفه متعدد الوجوه، وحمّال مفاهيم ودلالات، مخترقا كل صعب، واصلا بين التراث والمعاصرة، مُعرّجا على التراث العربي الإسلامي ليقرأه قراءة عصرية، بغرض ضخّ الدماء في هذا التراث وتجديد الذات العربية.

---

[1]- الخطاب الواصف، ص: 25، ينظر في تفصيل القول في مصطلح (المضمر) وما يناظره في الفكر العربي والغربي في كتابه الخطاب الواصف مؤولات المضمر ومرجعيته، ص: 30.

[2]- ينظر: عبد القادر فيدوح، نظرية التأويل في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، ط: الأولى، 2005، ص: 14.

2- سيمياء التأويل في النّص الشعري:

يقوم التأويل عند الناقد عبد القادر فيدوح في النّص الشعري على رحلة البحث في قلق معرفي عن الظاهر والخفي من المعنى، عن المتفق والمختلف، عن المضمر والمسكوت عنه في الإبداع، المتجدد، بما توجبه آليات المتناسل من العواطف، لذلك استدعى آليات تأويلية تتعدد بها زوايا الرؤيا، وتحيط بعوالم الإبداع الملتوية على نفسها، وبين مدارج الشعر ومعارجه، تتحوّل القراءة السيميائية في تأويلها المشروط إلى رهان تساؤل الخطاب، ومكاشفة أوليات الكتابة الكامنة في مأزق الذات وتفاعلاتها، ومن ثم يؤدي كل نص إلى طرح سؤال جديد،وهكذا تتعدد المعاني بتعدد الأسئلة، بحيث يتوارى خلف كل سؤال أفق لتوقعات منتظرة[1] وهو في ذلك يعتقد أنّ «العلاقة التي تجمع التأويل بالشعر هي علاقة تكامل، رغبة في البحث عن أغوار الشيء في الذات ومحيطها الكوني»[2]، وأنّ «النّص في تراكماته المعرفية ليس إلا مشروع تساؤل»[3]، يقوم على الذوق، والخبرة، وما يصدر عن النفس من انطباعات يجذبها إلى الجمال، تحت تأثير الاستجابة لكل ما هو جميل وخفي وسحري، من عوالم النّص، معتمدا الاستنباط والاستدلال والاستقراء، ومثيرا أسئلة لا يجيب عنها، إنما يبحث عن الجماليات الممكنة في تكوينها اللغوي والتصويري والترميزي، وهنا تتعدد الرؤى وتتفاضل في مبتغاها، وتتعرّج في تضاعيف مبناها، فالتأويل – في نظره - ليس مجرد "عودة إلى الأوليات" بل هو تفاضلي، أي تفضيل معنى على آخر، وتغليب دلالة على أخرى، أي أنه اختلاف وفرقة، اختلاف الآراء وتفرُّق الأهواء[4]، لذلك جاءت قراءة الناقد عبد القادر فيدوح منزاحة عن الأحكام

---

[1]- عبد القادر فيدوح، إراءة التأويل، ص: 43.

[2]- المرجع نفسه، ص: 04.

[3]- المرجع نفسه، ص: 119

[4]- ينظر: علي حرب، التأويل والحقيقة، قراءة تأويلية في الثقافة العربية، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط الثانية، 2007، ص: 36.

الجاهزة، و«غالبا ما تميل إلى التأويل التوليدي، القريب من تصور شليجل Schlegel، من حيث إعادة بناء النص بما تستدعيه طرائق الإنتاج؛ والميل عن جاهزية النظر المألوف»[1]، فهو لا يحلل النص إلا بقدر ما يعيد كتابة النص بأداء تأملي، من منظور إنّ الفكرة غالبا ما تكون مدعاة لأداء صورة الدال اللغوي الذي يسهم بدوره في تركيب العبارات الضمنية، ، وهي تتعقّب جذوة الكلمة المتوقعة في الصورة الإبداعية[2]، لذلك تقوم سيمياء التأويل في النص على التأويل التوليدي الذي يتسم **بالقراءة المفارقة والتأويل اللانهائي، والرؤيا الكشفية، وفضاء الرؤيا و اتساع الدلالة**، إلى جانب قلق التأويل ولا نهائية العلامة، لذلك نجده يتسلّح بمهارات نقدية، عربية وغربية، مصطفيا آليات التأويل وأدواته، لاكتناه ما يتمنع النص عن الكشف عنه، وهو يعتقد في هذا التأويل التوليدي أنّ «نظام النّص الوارد [الهدف] ليس هو سَمْتُ النّص [المصدر] العلّة جوهر الشيء الخفيّ، الذي يعكس المفهوم الضمني لصفات الرؤيا بوصفها المصدر الأساس لأي تصوّر في مدركات أفكارنا المرتبطة بمدركات الدوال في المعاني، ومن هنا يستوجب إيجاد رؤيا تأويلية للتفاعل مع العناصر المكوّنة لنظام النّص قبل ولادته، وهو ما يتوافق مع مصطلح الحفريات؛ ذي الصّلة باللامقول في القول الذي يبحث في اقتران منشأ الفكرة بكينونة الوجود»[3]، ومن هذا المنطلق تقوم الرؤيا التأويلية عند الناقد على الحفر في اللامقول الذي ينقِّب في أصل الفكرة، وكنه وجودها، كما ينظر إلى الحركة الإبداعية من خارج المرجعية المألوفة إلى استنطاق النص الوارد في دلالته الإشارية، وإشراكه في خلق لاحق يغوص في مكنونات الذات المبدعة العميقة الأغوار، طارحا افتراضات تأويلية تقوم على مجموع الخصائص العامة، التي ينتمي إليها كل نص، وهو يعترف أنّ جدلية استيعابه للنّص تجد أنّ النّص

[1]- عبد القادر فيدوح، معارج المعنى في الشعر العربي الحديث، ص: 12.

[2]- ينظر: عبد القادر فيدوح، الخطاب الواصف، ص: 14.

[3]- المرجع نفسه، ص: 13-140

ينطوي على عدّة دلالات، معبّرا عن نفسه من وراء عدّة أقنعة، تتيح لنا الإبانة عن معرفته معرفة ناصعة وفق ما تقتضيه فكرة السياق التصوّري لصياغته القائمة على الاحتمالات والتجاوز المستمر.[1]

3- الاستبطان الدلالي في الشعر الصوفي:

لا يخرج الاستبطان الدلالي في مسعاه إلى البحث عن المضمر في رمزيته التي تربط الظاهر بالباطن، ولكن لتمكّن الباطن على الظاهر، انطلاقا من الحدس والرؤيا التأملية للكشف عن ما تختزنه الدلالات من معانٍ عميقة «بقصد متابعة الأيقونة icon الشعرية التي لا يقذف بها النّص خارج تخومه وإنّما داخل أغواره»[2]، ولأنّ ناقدنا عبد القادر فيدوح يؤمن بما ذهب إليه ابن عربي: «ما في الكون كلام لا يتأول» وحتى يحمل تأويله السيميائي إلى موازاة النّص الإبداعي والحفر في أخاديده، فإنّه يستبطن الدلالة، ويستبق الفكرة قبل أن يجسدها المبدع في معادلة تأويلية، تجمع بين طرفي النّص المبدع ظاهره ومضمره، المقول واللامقول في قراءة جديدة تومئ لمعنى جديد، أو دلالة متضمنة، تحيل إلى دلالات متعددة ومتباينة، تولّد بدورها أشكالا جديدة من التأويلات، لذلك يؤكد الناقد عبد القادر فيدوح في أفكاره المبثوثة في جلّ كتبه أنّ «سياق التأويل لا يحكمه مقياس "الرؤيا" الموجهة لمعرفة الحقيقة، وإنّما يعتمد بالأساس على سياق منطق الباطن، هذا المنطق في طرق استنباطه لا تحدّه مفاهيم مسبقة ولا تحيط بالمتلقي دوافع خارجية لتؤثر فيه، بل غياب "النهج الضابط" يصبح شرطا أساسيا للمعرفة غير المتحيّزة، ومن هنا يسلّم القارئ سلطانه للعالم المجهول في أثناء عملية القراءة التي هي في عداد "التأويل التوليدي" من أجل خلق التأليف الثاني».[3]

---

[1]- ينظر: عبد القادر فيدوح، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1991ص: 7- 8.

[2]- فيدوح، معارج المعنى، ص: 107.

[3]- معارج المعنى، ص: 105.

وهنا يرشد الناقد فيدوح روّاد النقد العربي الحديث إلى ضرورة الإفادة من التجربة الصوفية واتخاذها منهلا إجرائيا عمليا وتطبيقيا في الدراسات التحليلية، وكل ما يتعلّق بالبنى العميقة، والبنى السطحية؛ لأنّه يرى أنّ «أي عمل أدبي لا تكتمل فعاليته إلاّ بمشاركة فعّالة من قارئ مطلع، وذلك عبر حلّ الشفرات المستخلصة، التي غالبا ما توظّف في النصوص بقصد التمويه والانحراف عن المعنى الحَرْفي لها، وهو ما يتوافق مع القراءة الدلالية الاستبطانية المفتوحة، كونها لا تنتهي إلى معنى محدد، ولكنها تعكف على ملاحقة المضمر الدلالي في جميع تمظهراته ومستوياته الترميزية والتشفيرية»[1]، وهو الأمر الذي تتميّز به النصوص الصوفية في الشعر العربي في معجمها اللّغوي والإيحائي والرّمزي؛ لأنّ الرّمز في نظره «يمكّن الإنسان من التخلّص من التجربة الظرفية والمباشرة، كما يمكّنه من التخلّص من الكون المغلق للتناظرات، فمن خلال الرمز تتسرب ذاكرة الإنسان إلى اللّغة وعَبْرَه يدرج الإنسان رغبته ضمن أفق مشاريعه الخاصة»[2]

وتأسيسًا على هذه الرؤية نجد ناقدنا فيدوح في كتابه "معارج المعنى في الشعر العربي الحديث" يختار بذائقته النقدية المائزة، ما يكتنه معالم النص ببعد نظرها، وقوّة بصيرتها، وشدّة عمقها في استخلاص المعاني المرجوحة وبخاصة في نصوص شعرية صوفية جزائرية وعربية [عثمان لوصيف/ عبد الله العشي/ نزار قباني] واستبطن دلالاتها ولاحق مدركاتها الباطنية وإحساس أصحابها الغائر في مساقات لا متناهية من اللاوعي والماورائيات[3] في محاولة القبض على المحمولات الدلالية في حنايا صموتها المطبق، عبر مقاومة النص ومراوغته، وتتدخل رؤيا الناقد فيدوح في استبطانه الدلالي لهذه المحمولات في

---

[1]- فيدوح، معارج المعنى، ص: 106.

[2]- سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل مدخل لسيميائيات، ش، س، بورس، نقلا عن Cp. Pierce Ecrit sur le signe ، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط الأولى، 2005، ص: 122.

[3]- ينظر في النصوص المدروسة، عبد القادر فيدوح، معارج المعنى، ص: 107.

النص؛ بكل ما يفعم به النص من إشعاعات وما يفيض به من افتراضات نابضة بالجوهري المطلق مع «فعالية الفهم التأويلي على فتّه – النص- من الداخل، وملامسة إمكاناته الجمالية، وخرق مجازاته الدلالية، عبر جدل (القراءة/ النص)».[1]

إنّ الاستبطان الدلالي للشعر الصوفي في تجربة الناقد عبد القادر فيدوح لم تخرج عن الرؤيا الكشفية التي تفض عوالم النّص المبهمة، والغوص في ما ينأى عن الأهواء المنجرفة، والحفر في الطّبَقات المعتمة التي يحملها المكوّن التركيبي، والمكوّن الدلالي ونور السر في الإشارة والعبارة أو في استنطاق السر في الحرف وفي انعطافه على داله، وفي إيماءاته على نفسه ليستنطق دلالته كما فعل في كتابه [أيقونة الحرف وتأويل العبارة الصوفية في شعر أديب كمال الدين] متوغّلا بفراسة ذات بصيرة ثاقبة، وعمق في إدراك معنى الحرف ومبناه، بوصفه مرآة تكتنه عالم ذات الشاعر، وصورة للكون في تجاذباته. [2].

4-السرد بين المبين المضمر:

لم تنكفئ جهود الناقد عبد القادر فيدوح على الشعر وعوالمه ودلالاته، بل اقتحم عالم السرد، ومنذ وقت مبكر مع كتابه [شعرية القص] الذي تناول فيه نماذج قصصية جزائرية محاولا من خلالها رصد فعالية تحولات حركية المجتمع الجزائري بين: الواقع والمتخيل/ الراهن والمرتقب/ السائد والرمزي في مقاربة نقدية للفاعلية السردية[3]، ليعود إلى هذا العالم مع كتابه [تأويل المتخيل – السرد والأنساق الثقافية] الذي تناول فيه علاقة السرد بالأنساق الثقافية الظاهرة منها والمضمرة، وقد ربطها بعناصر منها: **سرديات الو اقع الجديد** ممثلة

---

[1]- فيدوح، معارج المعنى، ص: 156.

[2]- ينظر: عبد القادر فيدوح، أيقونة الحرف وتأويل العبارة الصوفية في شعر أديب كمال الدين، منشورات ضفاف – بيروت، لبنان، ط: الأولى، 1437 هـ/ 2016م، ص: 33- 34.

[3]- ينظر: عبد القادر فيدوح، شعرية القص، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية بوهران، ط. الأولى، 1996، ص: 114- 115.

في انهيار المركزية العالمية، **وثقافة العنف** التي باتت تسود الثقافات في جميع مجالات الحياة، **والواقع الافتراضي**، وهو الواقع الذي وصفته جل الدراسات الثقافية على أنه بات يرسم واقعا افتراضيا فوق الواقع الحقيقي، ثم أشار إلى **قلق الهوية الآسنة**؛ إذ يعتبر الحديث عن نسق الهوية في كتاب [تأويل المتخيل] حديثا شائكا من حيث التباسها، وتنوّع الانتماءات في الثقافات القومية، أو العرقية، أو الاثنية، مما أفقدها التوازن الذي سهل من اختراقها من قبل الثقافة الكولونيالية المتوحشة.[1]

وقد واكب الناقد في هذا الكتاب ما وصلت إليه الدراسات الثقافية التي قام عليها النقد الثقافي؛ وخاصة في علاقة هذه الدراسات بالكولونيالية الجديدة وأثرها في إخضاع الهوية إلى مسارها الثقافي والاقتصادي والسياسي[2]، وقد اختار الناقد السرد ممثلا في الرواية، بوصفها المنجز الأكثر التصاقا بالمقروئية، واهتماما بصراع الثقافات وتنوعها، ممّا يشكّل ثقافة العامة وأنماط معيشتهم، أو ثقافة النخبة وحقيقة حياتهم، فيما استقر عليه الوعي من مبادئ وقيم ثقافية، بشقيها الظاهري والمسكوت عنه، وبما تشير إليه من علامات دالة، وهذا ما تحيل إليه **نظرية الصندوق الأسود في نظرية الأنساق الثقافية**، والتي «تعني أنه لا يمكن التعرف على باطن النسق، ولا يمكن تحليله لأنه شديد التعقيد، كما لا يمكن استنتاج حتمية وجود ميكانيكية ما تفسر موثوقية النسق وإمكانية تقديره والتنبؤ بمخرجاته لدى مدخلات محددة معروفة إلاّ من خلال انتظام علاقات النسق الخارجية»[3] فالنسق يوهمنا بأنه داخلي باطني مضمر وعميق وهو يعطي صورة متوهمة على الإطار الخارجي له، بأسلوب شرطي في تعالق

---

[1]- ينظر: جميلة بكوش، معالم النقد الثقافي في الجزائر، دار خيال للنشر والترجمة، الجزائر، ط. الأولى، 2001م، ص: 67.

[2]- ينظر: جميلة بكوش، معالم النقد الثقافي، ص: 66.

[3]- نيكلاس لومان، مدخل إلى نظرية الأنساق، ترجمة يوسف فهمي الحجازي، منشورات الجمل، ألمانيا- بغداد، ط1، 2010م، ص: 64.

المدخلات والمخرجات؛ إذ لا يمكننا فهم النسق في انتظامه الداخلي إلا إذا فهمنا ما بداخل الدال وباطنه، فكلما أظهر النسق باطنا، إلا وظهر باطن آخر مُتَخَفٍ داخله، وهو الأمر الذي أشار إليه الناقد فيدوح من أنّ المتخيل السردي تكتنفه شعرية الراهن في تجليات الأحداث المستجدة، وتتغلغل في باطن الوجود المأمول، وتسعى إلى التغيير والتبدّل في مجريات الواقع المشبع بأشكال الضياع والتيه، كما تسبر غور سردياتنا اليومية في رؤيتنا للراهن، أو لا تضاعنا في ظل أوضاع قائمة، أفضت بنا إلى نفق مظلم، والحال هذه أنّ تشكّل المتخيل السردي هو صورة لفيض من لسان حال المجتمع، ومعطى ثقافي مُفرّغ من مساءلة ما قدّمه وعينا لهذا الواقع[1]، وهي الفكرة المحورية التي تناول بها الناقد فيدوح السرد في أعماله النقدية المتقدمة منها والمتأخرة، كما في كتابه [التاريخ والسياسة في الرواية الجزائرية] و[تسريد الذاكرة في ثلاثية عز الدين جلاوجي]، ففي كتابه شعرية القص يسير على خطى المنهج السيميائي الذي يبحث في عمق الدلالات المشكلة لنسيج الخلية الرمزية، أو ما يمكن أن يعرف بالخلية الرحميّة لفضاء المعنى[2]، يؤكد أنّ الدلالية تسعى دوما إلى إنجاز تساؤلاتها حول الآليات المتحكمة بفضاءات السرد، وكيفية اشتغالها في حدود معطيات لسانية وبنيوية، تعتزم على فضّ الخطاب السردي، وشبكة تعالقاته، التي تخضع بدورها إلى سلسلة من التعقيدات والفراغات والالتواءات، تشكّل في ضوئها نسيج الحبكة، أو نواتها، مما يفضي إلى تعدد مستويات التحليل السردي بتعدّد مراحل النص ومستوياته وطبقاته[3]، ذلك أن رؤيته النقدية في المنظور التأويلي تحرر النص من الحضر والتقييد، التي من شأنها أن تستعصي على محاولات القولبة والاحتواء، لكي يُرى، بوصفه رموزا ينبغي استنطاقها، أو إشارات يمكن افتضاضها، ففي المنهج التأويلي يجري التعامل مع النص ليس بوصفه أحادي المعنى والدلالة أو الوجهة،

[1]- عبد القادر فيدوح، شعرية القص، ص: 20- 21.

[2]- عبد القادر فيدوح، تأويل المتخيل السرد والأنساق الثقافية، دار صفحات، سوريا، 2019، ص: 08.

[3]- ينظر: عبد القادر فيدوح، شعرية القص، ص: 120.

بل بوصفه متعدّد الوجوه والأبعاد والخطوط أو السطوح[1] وهذا ما يؤكده الناقد فيدوح في تجربته النقدية من أن الدراسات النقدية الحديثة لا تتعامل مع منطق المطابقة في ظاهرية الخطاب، وإنّما تسعى إلى التوغّل في طبقاته الأكثر عمقا؛ من حيث كونه نظاما تركيبيا، يخفي في طياته ما لم تفصح عنه في مستواها الظاهر.[2]

5- خاتمة:

سعت هذه الدراسة إلى استقصاء مسار **التجربة النقدية عند عبد القادر فيدوح**، على وَفق فاعلية الرؤيا الكشفية، رغبة في تحقيق بغيةَ فعل الذات في صلتها بالوجود المتعدد الأنساق. كما جسدت رؤيا الناقد القائمة على التأويل السيميائي في جل دراساته، سواء ما تعلق منها بالشعر أو بالسرد، وقد خلصنا بعد دراستنا لمؤولات تجربته النقدية إلى النتائج الآتية:

- المزاوجة بين المنهج والتطبيق.
- الاطلاع الواسع على الموروث النقدي العربي والبحث في نظيره الغربي.
- اقتحام أسوار المناهج، والكشف عن أغوار الاتجاهات في تحليل النصوص الشعرية والسردية.
- لم يبخس جهود القدامى في ما تركوه لنا من تنظيرات عُدّت ركائز قوية، وداعمة للنظريات المعرفية والتأويلية عربيا وغربيا.
- ساير التحولات السريعة التي عرفتها العلوم الإنسانية.
- تشبع بالفكر الرشدي [نسبة إلى ابن رشد] من حيث [تركيب الجملة تركيبا فلسفيا].
- أدرك أن الاتجاهات النقدية الحديثة لم تعد في نظره قابلة للسيرورة كما كانت، على نحو ما ورد في كتابه: "دلائلية النص الأدبي" من أن النص لم يعد

---

[1]- ينظر: علي حرب، النص والحقيقية 3، الممنوع والممتع، نقد الذات المفكرة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط: الثانية، 2000، ص: 63.

[2]- عبد القادر فيدوح، شعرية القص، ص: 79.

يحمل الراية الإيديولوجية التي اعتمدت بنية الخلل الاجتماعي مظهرا لها، ولا البطاقة الاستنطاقية، الاستبارية، والاستخبارية للذات المبدعة، بوصفها علبة سوداء تساعدنا على استكشاف عبقرية الواعية الفردية ؛ إنما محاولة الكشف عن غموض كينونته الاحتمالية صفة مميزة له ، ضمن إجراء تنظيم ولادته المتجددة.